﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾

[العنكبوت: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

معادنُ البَشَر تتكرّر، والتّاريخُ يُعيد نفسَه

لمّا ختَمتِ الآيتان السّابقتان قصّةَ مدين بإهلاكهم بالرّجفة، ناسب أن يُخبر في هذه الآية عن أمثالهم من الأمم وأتباعهم في نَسَقِ التّكذيب، فأخبر عن إهلاك عادٍ وثمودٍ وقد أخذوا بالرَّجفة كذلك، فتشابهوا معهم في العمل والجزاء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه[2]، الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصيير الشَّيء زَينًا، أي: حَسَنًا[3]، فهوَ تَحْسينُ الشَّيْءِ المُحْتاجِ إلَى التَّحْسينِ، وإزالَةُ ما يَعْتَريهِ مِنَ الْقُبْحِ أوِ التَّشْويهِ؛ ولِذَلِكَ سُمّيَ الحَلّاقُ مُزَيِّنًا[4]، والزّينة: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالحُليِّ والْجَواهِرِ[5]، والمقصود بالتَّزْيين في الآية: تَحْسينُ ما لَيْسَ بِحَسَنٍ بَعْضهُ أوْ كُلُّهُ، والمُرادُ: زَيَّنَ لَهم الشَّيطانُ أعمالَهم الشَّنيعةَ فأوهَمَهُم بوَسوَستِه أنَّها حَسَنَةٌ.

2) ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلّ على العِلم بالشّيء[6]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (زين).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 179.
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (زين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

والبَصَرُ يقال للجارحة النّاظِرة[1]، والبصيرة: للإدراك الذي في القلب[2]، والبصيرة: البرهان، وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشّيء[3]، و﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ جمع مُستبصِر، اسم فاعل من السّداسيّ استبصر، وزنه مُستفعِل بضمّ الميم وكسر العين[4]، والسّينُ والتّاءُ فيه للطّلب[5]، أي: طالبين الإبصارَ والاستبانةَ للعذاب، على معنى أنّهم أتوا ما أتوه من الكفر وهم مستشرِفون للعذاب كأنّهم يطلبون إبصاره وشهودَه، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 70]، وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: 29]، ووصْفُهم بالاستبصار على هذا المعنى من الطّلب تهكّمٌ بهم، ويصحُّ أن يُستعار الاسْتِبْصارُ للإبْصار، نحو استعارة الاستجابة للإجابة[6]، فالسّين والتّاء للتّأكيد[7]، ومعناه: كانوا متمكّنين من النّظر والاستبصار ولكنّهم لم يفعلوا، أو كانوا مستبصرين متبيِّنين أنّ العذاب لاحِقٌ بهم بإخبار الرُّسل لهم ولكنّهم لَجّوا حتى هلكوا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من ضلّ بعد استبصار الحُجّةِ كان حقًّا على الله أن يُعذِّبه

أخبرتِ الآيةُ عن مصير هؤلاء الأمم المكذّبة للرّسل، كيف أبادهم وتنوّع عذابُهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعادٌ قومُ هود، كانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبةٌ من حضرموت بلادِ اليمن، وثمودُ قومُ صالح، كانوا يسكنون الحِجْر قريبًا من وادي القُرى، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيّدا، وتمرّ عليها كثيرًا[9]، وترى ما

(1) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (بصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(4) صافي، الجدول: 10/ 338.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بصر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بصر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 278.

حلّ بهم، وسببُ ما جرى عليهم إلّا أنّ زيّن لهم الشّيطانُ أعمالهم من عبادة غير الله، وصدَّهم عن الطّريق السّويّ الذي يوصلهم إلى النّجاة، وقد كانوا متمكّنين من النّظر والاستبصار، فلم يكن لهم عذرٌ في الغفلة، وعدمِ التدبّر في العواقب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

عطفُ القصَّة على القصَّة توكيدٌ لمواطن العبرة

جملة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها من عطف القصّة على القصّة، فقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ داخلٌ في نسق القصص المتعاقبة في السّورة من قصّة نوحٍ وإبراهيم ولوط وشعيب ﷺ[2].

بلاغةُ تقديرِ المحذوف:

القصصُ ذِكرى للحاضر، والعنايةُ بالحيّ الحاضر أوجبُ

انتصبَ لفظُ ﴿وَعَادًا﴾ بعاملٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: (وأهلكنا عادا، أو واذكر عادا)، أو العامل المضمر معطوف على مفعول ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، أي: (فأخذتهم الرجفة وأخذَتْ عادا وثمودا)، ويتأيّد هذا التّقدير بقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: 40]؛ لأنّ (كُلًّا) اسمٌ يعمّ المذكورين، فلما جاء منتصبا بـ﴿أَخَذْنَا﴾ [العنكبوت: 40] تعيّن أنّ ما قبله منصوبٌ بمثله، وتنوينُ العوض الذي لحق (كُلًّا) هو الرّابط، ويكون تقدير الكلام: (وعادا وثمودا وقارون وفرعون إلخ، كلّهم أخذنا بذنبه)[3]، والذي يظهر أنّه يحسُن تقديرُ: (واذكروا عادا)، ولَعلّه أولى من تقدير (الإهلاك) و(الأخذ)؛ لِوضوح أنّ الذّكر هو ذكرُ إهلاكهم، ولوضوح الإهلاك والأخذ من فاعل التّبيّن المضمر في: ﴿تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾، مع ما في تقدير فِعل الذّكر من العناية بالحيّ الحاضر على الهالك

(1) المراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 248.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 248.

الغائب، والقصصُ ذِكرى للحاضر المخاطَب، فيحسُنُ تقديرُ الفعل لأجْله؛ لينتفِع ويتذكّر.

نوعُ الواو وفائدتُها:

أهـلُ مـكّـةَ كـان عـلى خُـبْرٍ قـديـمٍ بـأحـوال عـاد وثـمـود فاحتَجّ القرآنُ بـقـصـصِـهـم عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ حاليّةٌ، فالواو واو الحال، جيء بها للاهتمام بمضمون الجملة، ولدلالتها على الوقت، إذا قُدّر العامل (واذكر) في: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾، أي: واذكر عادا وثمودا حين تبيّن لكم إهلاكُهم من مساكنهم، فإنّ الذّكرى أنفعُ ما تكون في وقت الظّهور والتّبيّن، وتفيد الواو كذلك أنّ ما بعدها مستقِرٌّ قبل الحدث المصاحِب لها، وذلك على تقدير (واذكر)، فإنّ ما بعد الواو وهو تبيّنُ الإهلاك من مساكنهم مستقرٌّ وثابتٌ قبل ذِكْر الذّاكِر، وهذا يدلّ على أنّ بعد الواو الحاليّة مُجامِعًا لما قبلها في المعنى، فالتّبيّنُ مجامِعٌ للذّكرى التي دلّ عليها العامل المضمر ومواتٍ له في: (واذكر عادا وثمودا)، كأنّه قيل: اذكرهم والعِبْرة لائحةٌ لك من آثارهم، كما تدلّ تلك الواو على استقلال مدخولها في إخبار السّامع بها.

وفي الواو معنى الاستئناف الإخباريِّ ممّا قبلها، وعليه فيصحّ لك أن تُخبر بها المخاطَبَ استقلالًا، فتخبره أوّلا بجملة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾، ثمّ أنت تخبره بجملة: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ كأنّك تقول: أهلكنا عادا وثمودا ثمّ تريد للمخاطب أن يعلم خبرًا آخَر من أخبارهم، وهو أنّ مساكنهم تدلُّ على هلاكهم، وليس معنى الاستقلال الانفصالَ في المعنى عن التي قبلها، بلِ الاستقلالُ في قصد الإخبار بها[1].

ويصحّ أن تكون الجملة اعتراضيّةً بين قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 297، 306.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لتسجيل الموعظةِ والاحتجاج على المُخاطَب؛ لأنّه المقصود بالاعتبار والتّذكرة، أو معطوفةً على الفعل المضمر في: ﴿وَعَادٗا﴾، وفاعل التّبيّن ضمير مستتر يعود على ذلك الفعل المضمر، أي: تبيّن لكم إهلاكُهم أو أخْذنا إيّاهم، وحُذف فاعلُ التّبيّن استغناءً بظهوره في المعنى[1].

فائدةُ التّحقيقِ بأداة (قد):

الكافرُ أحوجُ إلى تحقيق الخطاب له؛ لانحجابه عن الذِّكرى بالكفر

تصديرُ جملة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ بأداة (قد) التّحقيقيّة؛ لتقرير الإنذار للمخاطَبين أن يتّقوا مصيرهم، وألّا يُعانِدوا نبيَّهم، وليستقيموا على دربه وشرعه حذرًا من أن يصيروا عِبْرةً ومثَلًا كعادٍ وثمود، ولتأكيد هذا التّقرير حقّق المضمونَ بقد، تنبيهًا على أهميّة النّظر والاعتبار.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿تَّبَيَّنَ﴾:

البيانُ يَخلقُ فجْوَةً بين الوضوحِ وضِدّه

استعمِل الفعلُ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ دون مرادفاتِه، ليدلّ على البَوْنِ الفاصل بين الغموض والانكشاف، وليدلّ على أنّه ليس مجرّدَ انكشافٍ ووضوح أو ظهورٍ، بل هو وضوحٌ مقترنٌ ببَيْنونَةٍ حاصلَةٍ بين طرفين، طرفِ الغفلة وعدم الإدراك، وطرفِ المحجّة البيضاء في بؤرة العيْن وصميم القلب؛ لأنّ التّبيّن في أصله يدلّ على "امتدادٍ بين طرفين أو جانبين مع فصلٍ كبيرٍ أو اتّساعٍ، ومن ذلك الفصلِ والتّمييزِ جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصول المتميّز عن غيره يَلفِت النّظرَ"[2].

بلاغةُ التّعبير بصيغة (تفعَّل):

الدّلالةُ على التّدرّجِ والصّيرورةِ والتّكلّف

جاء الفعل ﴿تَّبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفعّل)، دون أن يُقال: (بان لكم)؛ للدّلالة على معانٍ عدّة: الأوّل: (التدرّج): فالعِبرةُ من التّاريخ تبينُ

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 524، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 362، وصافي، الجدول: 10/ 337، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 434.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بين).

شيئًا فشيئًا بتظاهر الأدلّة وتَكرار التّذكير بها، الثّاني: (التّكلّف) وهو أحدُ الدّلالات الأصيلة لصيغة (تفعّل)، ومعنى التّكلّف هنا: أنّ إظهارَ العِبرة بالذّكرى يحتاج إلى معاناة في انعتاقِها وانفصالها عن الالتباسِ، وتصفيتِها من منازع الأهواء، فأسند التّبيّنَ إلى فاعله، أي: تبيّن الذِّكرُ والعِبرةُ لكم من إهلاك مساكنهم؛ ليدلّ على تَخلّص الذّكرى المستفادةِ وأنّها خُلاصةٌ مُصفّاةٌ ومُصطَفاة؛ لأنّها السّبيلُ لاعتناق الحقّ، الثّالث: (الصيرورة) فمعنى ﴿تَّبَيَّنَ﴾ أنّه حتى يظهر انتقلَ من طَورٍ إلى طور، فصار واضحًا جليًّا بعد أن كان مُشكِلا خفيًّا[1].

دلالةُ التّعبير بالماضي:

تأصيلُ اليّقين ودحضُ الاحتمال الكاذب

صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿تَّبَيَّنَ﴾، للدّلالة على تشبّع الفاعل المُضمَر من الذّكرى أو الإهلاك بصفة التّجلّي والبيان، وتحقُّقِ ذلك فيه تحقّقَ الأزمان الماضية التي لا ريبَ في تحقّقِها وتمامِها.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

قيمُ الهدايةِ تُشعشعُ في ثنايا النَّظم

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ دون أن يقول: (وقد تبيّن من مساكنهم لكم)؛ للاعتناء بشأن المخاطبين؛ لأنّهم المقصودون بالانتفاع من هذه القصّة؛ مع ما فيه من الحضِّ على طلب البيان الصّادق، والاستنارةِ بنور الوحي الحقّ، وهي قيمة هدائيَّة تُربّي الدّعاة على الاعتناء بالمدعوين.

بلاغةُ اختيارِ مفردة المساكن دون البيوت:

المساكنُ تصفُ حالَ الرّاحة والسّكون، والبيوتُ تصف حال المبَيتِ

جاء استعمالُ لفظِ المساكن في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ دون أن يقول: (بيوتهم)؛ لأنّه أمْكَنُ في سياق الزّجر والتّوبيخ للمخاطبين على عدم اتّعاظهم، كما قال: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم:

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 71، 4/ 73، وابن مالك، شرح التّسهيل: 3/ 452.

45]، ووجْهُ ذلك: أنّ المساكن تشير إلى حالة الرّاحة والاستقرار والأمْن ومفارقةِ المتاعب والأعباء التي كان فيه هؤلاء، فأصله من (سكن) وهو خلاف الحركة، ومنه السُّكْنَى: التّبوّء والاستيطانُ والقرارُ والثّبات، ولذلك سُمّيتْ منازلُ الجنّة مساكنَ، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: 12]؛ لأنّهم بدخولها تَسْكُنُ جميعُ متاعبِهم وجراحاتهم التي لاقَوْها في الدّنيا، كأن لم تكن أبدًا[1].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ومعناها:

يحتملُ حرفُ (مـن) الابتداءَ والتبعيض

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ لابتداء الغاية، كأنّه قيل: حصل لكم التّبيّن المذكور من جهة مساكنهم، ويصحُّ أن تكون للتّبعيض، أي: وتبيّن لكم بعضُ مساكنهم، فحرف ﴿مِّن﴾ على هذا اسمٌ بمعنى (بعض) وهي في موقع الفاعل للتّبيّن، أي: ظهر لكم - عن طريق المُشاهدة - بعضُ مساكنهم بالعبرةِ واتّضاحِ أثر الإهلاك[2].

فائدةُ الإضافة:

أُضيف لفظُ (مساكن) إلى ضمير الغائبين في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ لتعريف المساكن وتعيينِها، أي: مساكن قومِ عادٍ وثمود.

نوعُ الواو ووظيفتُها:

تزيينُ الشَّيطان دالٌّ على أحوالٍ وخطواتٍ متتابعة

جملة ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾، أي: واذكروا عادا وثمود، وهؤلاء زيّن لهم الشّيطان أعمالهم، وهو من عطف الأخبار والجُمَل بعضِها على بعض، ويصحّ أنْ تكون الواو حاليّةً، أي: وقد زيّن لهم الشّيطانُ أعمالهم، أي: ليكن ذِكْرُكم لهم فيما يخصّ هذه الحالَ من أحوالهم؛ لأنّ حال التّزيين هذه هي المنوطةُ باتّقائها والتّحوّطِ منها، دون سائر أحوالِهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 234.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.
(3) صافي، الجدول: 10/ 337.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ التّزيين:

التّزيينُ ترويجٌ لفِكْرةٍ واهِمة وقلْبٌ لحقيقةٍ مُستقرّةٍ

استعمالُ مفردةِ التّزيين فعلًا وإسنادُه إلى الشّيطان في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أصل الفطرة، وأنّ الإنسان حتّى يُخالفها أوّلَ مرّة بالانحراف عنها، لا بدّ له من مُحبِّبٍ يُزيّنُها له حتى يستسيغ قُبْحَ الأعمال المحرّمة، وإلّا لما احتاج إلى تزيينٍ، والذي هو تحسينُ ما ليس بحسنٍ، والإيهامُ بأنّ ما ليس جميلًا جميلٌ! وفي التّركيب تنبيهٌ على أنّه لا يُزيَّنُ إلّا للغافل؛ لأنّ اليَقِظَ المُنْتَبِه لا يرى القبيحَ حسَنًا، فلا ينخدعُ بتزيينه.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

النّاسُ فرائسُ الشّيطان يَصطادُهم بِحيَلِه

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الفاعل والمفعول في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ دون أن يقول: (وزيّن الشّيطان أعمالهم لهم)، لئلّا يتوهّمَ أنّ المراد بتزيين الشّيطان هو عمومُ عملِه بالتّزيين، بل خصوصُ تزيينه الكائن لهم، وللتّنبيه بتقديم: ﴿لَهُمُ﴾ على أنّهم اتّبعوه في تزيينه، وللتّنبيه على أنّ الشّيطان حين يزيّن للنّاس شيئًا فإنّما يقصدُهم بذواتهم ويتسلّطُ على أبدانهم وخواطرهم، ولا يكتفي بتزيين الباطل، بل يَؤُزّ أنفسَ النّاس إليه.

بلاغةُ إظهارِ الفعل:

لفظُ الشّيطانِ يومِئُ إلى الاستيحاش منه وتخوينِه في تزيينه

أظهر النّظمُ الفاعلَ وهو الشّيطان في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فلم يقل: (وزُيِّن لهم أعمالهم) بإضمار الفاعل وبنائه للمفعول؛ وذلك لأنّ لفظ الشّيطان يومِئُ إلى ضرورة الاستيحاش منه والنّفورِ من تزيينه، فاللفظُ نفسُه منبوذٌ ومشتملٌ على معنى الغرابة والنّفور، كأنّه قيل: الشّيطان البعيدُ من الرّحمة، المحترِقُ باللعنة[1] يُزيِّن لكم أعمال الفحش والسّوء، فاسمُ الشّيطان المذكور يستلزم التّحذيرَ من تزيينه؛ لأنّ الشّيطان قبيحٌ في اسمِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 437.

ومسمّاه، فحلاوةُ التّزيين التي تصدر عنه، هي حلاوةٌ ظاهرةٌ فقط، وهي قُبْحٌ وسوءٌ في حقيقتها طُلِيَتْ بالتّلبيس والزّيف.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الأعمال دون الأفعال:

الأعمالُ مقصودةٌ، والأفعال قد تجري عن غير قصدٍ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الأعمال دون الأفعال في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، لأنّ العمل أخصُّ من الفِعل، فالفِعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو من غير قَصْدٍ، والعمَل هو فِعلٌ مقصود، فدلَّ التّعبير بالأعمال، على أنّهم فعلوها عن قصدٍ واختيارٍ تامّين، ولا يخفى ما فيه من إقامة الحجّة عليهم بأقصرِ بيان[1]، ففيه إقامةُ الحجّة على الذين يتّبعون خطواتِ الشّيطان وتزيينَه، بأنَّهم قصدوا ما قاموا به من أعمال.

نوعُ الفاء ووظيفتُها:

الشّيطانُ يصدّ النّاسَ باختيارهم، لا جبْرًا لهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ تفريعٌ على جملة التّزيين في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: تفرّع عن هذا التّزيين وترتّب عليه صدودُهم عن السّبيل، فجعلت الصّدَّ عن السّبيل نتيجةً مُسبَّبةً عن التّزيين، ويصحّ أن تكون الفاء فصيحةً عاطفةً مدخولَها على محذوفٍ مقدّر ناشئٍ من الجملة قبلها، أي: وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم، فأطاعوه في تزيينه، فحصل بذلك الصّدُّ عن السّبيل[2].

علّةُ حذفِ الفاعل:

التّزيينُ من وساوس الشّيطان المُضِلّة

حُذف الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لأنّه مقتضى الظّاهر والحال، والفاعل هو الشّيطان، إذ هو مقتضى العطف، أو أن يكون المصدرَ المفهومَ من الفعل، أي: (فصدّهم التزيينُ الحاصل من الشيطان)[3]، والمعنى في المآل واحد.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عمل - صنع).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 41/ 437، وصافي، الجدول: 10/ 338.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 186.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الصدّ:

التّعبير بالصّدّ يوحي بالإعراض التّامّ

جاء استعمالُ مفردةِ الصّدّ في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليدلّ على كمال إعراضهم، وتمامِ انصرافهم، وقوّة حيَل الشيطان في منْعِهم وتحويلهم عن السّبيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: 175]، أي: يخوّف أولياءه المنافقين من التّوبة والاستقامة كراهيةَ أن يُحرَموا تحرّرَ الهوى ولذائذَ الفسوق والانفلات[1].

معنى ﴿عَنِ﴾ ودلالتُها:

مـن تنحّى عن سبيل الله نحّاه الله وأقصاه

عُدّي فعلُ الصّدّ بحرف المجاوَزة في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليدلّ على مجاوزتهم لسبيل الحقّ رغم وضوحه، كأنّ لم يَرَوْه، فتنحّوا عنه تنحّيَ المُفارِقِ إلى ناحيةٍ أخرى، ولأجل هذه المُفارَقَة قال بعدها: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ لئلّا يتوهّم واهمٌ أنّهم عمَوا عن السّبيل بالكليّة فيعتذرَ عنهم بانحجاب المعرفة والعِلم عنهم.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

مـن حـاد عـنِ السبيل هَوِي إلى المكان السّحيق

(أل) في لفظ السّبيل في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إما أن تكون للعهد، أي: سبيل اللّهِ الحقّ والنّجاة الذي يعمّر الدّيارَ ويعصمُ من الإهلاك في الدّنيا والآخرة، أو أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: سبيل النّجاة، وحُذف المضاف إليه لزيادة مدح السّبيل، كأنّه لِكمالِه وظهور معناه لا حاجة لتعيينِه بالإضافة؛ لأنّه متعيّنٌ متفرّد، كأنّه لا سبيل إلّا هو، أو هو الحريّ بأن يُقال له السّبيل[2].

بلاغةُ الاستعارة:

الشّيطانُ قاطعُ طريقِ الحقّ عن سالكيه بالتّزيين والصّدّ

في جملة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استعارةٌ تمثيليّة شبّه حالَ الشّيطان في إغوائه لهم بحال قاطعِ طريقٍ يقف على رأسه، ليمنع

(1) الماوردي، النّكت والعيون: 1/ 438، والرّاغب، المفردات: (صدد).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 362.

النّاسَ من سلوكه، أو شبّه الشّيطانَ في صدّه بقاطع الطّريق، وشبّه سبيلَ الحقّ في وضوحه وانفراد وانفرادِه بطريقٍ عامرٍ مُنير وسطَ الظّلمات والخرابات، وهو من تشبيه المعقولات بالمحسوسات.

دلالةُ واو الحال وبلاغتُها:

ضـلالُ أتـبـاعِ الشّيطان عن عِلمٍ وبيّنة

الواو في جملة: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ حاليّة، أي: وقع لهم التّزيينُ والصّدّ في الوقت الذي كانوا فيه متمكّنين من النّظر والاستبصار، فالجملة الحاليّة أفادت مُزامنةَ استبصارهم مع التّزيين والصّدّ الحاصل من الشّيطان لهم، كما أفادت ثبوتَ تبصّرهم قبل أن يقع لهم التّزيينُ والصّدُّ لهم، فدلّتِ الجملة الحالية بذلك على أمرين: **الأوّل:** أنّهم كانوا متأهّلين للنّظر والاستدلال وقتما وقعوا في التّزيين والصّدّ، وعاقِلين لخطاب الرُّسل لهم بالنّذير والوعيد، ومع ذلك جادلوا ولم يَنتهوا، **الثّاني:** أنّهم قبل التّزيين والصّدّ وكانوا على الفطرة الأولى من استبصار الخير وإباء الشّرّ ولكنّهم طمسوها بطاعة الشّيطان[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

ثبوتُ الاستبصار كـنـايـةٌ عـن انقطاع الأعـذار وتحقّقِ الجناية

التّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أفاد ثبوتَ نسبة اسم ﴿وَكَانُواْ﴾ لخبرها، أي: تحقيق نسبةِ الاستبصار إليهم، كأنّ الإخبار عنهم بالاستبصار هو حكمٌ ثابتٌ في أصل خِلْقتهم، وهو كذلك؛ لأنّ الاستبصار موجود فيهم بقوّة الفِطرة وسلامةِ المَلَكة وخلوِّهم من عوارض النّظر والفهم، وقد كان ذلك ديدنَهم في معرفة الحق وتجاوزه.

فائدةُ السّين والتّاء:

أفاد دخولُ السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ التّأكيدَ[2]، فهم على استبصارٍ متأكّد المعاني، جليِّ الحقائق.

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 297، 306، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249.

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل:

ما أعظمَ الجنايةَ عند البصيرة

جاء التّعبير باسم الفاعل ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾؛ لتحقيق تمكّنهم من هذه الصّفة وتحقّقِهم بها، ليقع نفيُ العذر عنهم من كلّ الوجوه؛ ليتأكّد المُرتابُ ويطمئنّ إلى كونهم لم يُظْلَموا طرفةَ عينٍ، ويتقرّرَ له من هذا التّركيب المُحكَم أنّهم همُ الظّالمون[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المساكِنُ والدّورُ:

بعضُ الدّور قُبورٌ، فليس كلُّ دارٍ تصلح مَسْكنًا

المساكِن مِنْ (سكن)، وهو أصل يدلّ على ضِدّ الحركة والاضطراب[2]، والسّكون: ثبوتُ الشّيء بعد تحرّكٍ، ويُستعملُ في الاستيطان نحو: سَكَنَ فلان مكانَ كذا، أي: استوطنه، واسمُ المكان مَسْكَنٌ، والجمع مَساكِنُ[3]، وسمّيتِ البيوت مساكِنَ؛ لأنّها تُسَكِّن أصحابَها بالرّاحة والدّعَة والوقار؛ ولأنّ حركتهم واضطرابَهم في السّعي والمَعاش يَتوقّف عندها، ويَسْكُنُ فيها.

وأمّا الدّار: فأصلُ (دور) يدلّ على إحداق الشّيء بالشّيء مِنْ حَواليه[4]، والدّار: المنزل اعتبارا بدورانها الذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، ثم تسمّى البلدة دارًا، والصَّقْع دارًا، وسمّيت الدّنيا دارًا والآخرة دارًا؛ لإحاطتهما بأهليهما، في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى[5].

وعليه: فكلٌّ من الدّار والمسكن، يُلحَظ فيه معنًى ليس في الآخر، فالدّار باعتبار الإحاطة والحماية، فحيطانُها تدور حول القاطنين فيها، والمسكن يُلحظ فيه معنى السّكون وانقطاع التّعب وتحصيل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).
(5) الراغب، المفردات: (دار).

الرّاحة ومفارقة العناء، ولذا قال: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ أي: جعلنا إهلاكهم وعناءَهم من حيث أرادوا الرّاحة والسّكونَ، فما شيّدوه لراحاتهم صار موضعًا لجراحاتهم، ومكانًا للاعتبار بهم، فاعتبروا وتذكّروا، ولم يقل: (وقد تبيّن لكم من ديارهم)؛ لأنّ كلّ المساكن دورٌ، وليس كلّ دارٍ مسكنا، فأراد أن يُخبر أنّ ديارهم كانت أُنْسًا لهم ومصدرَ راحةٍ وسكينة، فعبّر عنها بالمساكن؛ ليؤكّد هذا المعنى، والذي يؤيّد ذلك أنّه عبّر بالدّيار في الآية قبلها في مقامِ التّدمير والإزالة، فقال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، ولم يقل: (في مساكنهم جاثمين)؛ إذ كيف تكون مساكنَ ومحاضِنَ، وهم فيها جاثمون هالكون، فأين السّكَنُ مع الرّجفة والزّلزلة والاضطراب، فلفظُ المساكن يتناقض مع هذه الأوصاف، ولذا عبّر بلفظ ﴿دَارِهِمۡ﴾ ممّا يشيرُ إلى أنّ المساكن أخصُّ من الدّور، وأنّه ليس كلُّ دارٍ تصلحُ مَسْكَنًا.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»